مكتبات دمشق العلمانية تغلق.. ومكتبات المطبوعات الدينية تزدهر!

زيد قطريب

القصة لا تعني عويلاً على المكتبات أو رثاءً للمعرفة في البلد، لكن الإعلان عن إغلاق مكتبة نوبل في دمشق، فتح الجروح الثقافية والشخصية للأفراد الذين تربطهم بالأمكنة والأفكار علاقة لها رمزيتها، خاصة أن إغلاق المكتبة يمكن أن يعني انطواء مرحلة كاملة تتعلق بالميول الذهنية ومزاج الجمهور وحالته الاقتصادية عدا عن التيارات التي كانت تمثلها مكتبات دمشق التي أغلق الكثير منها خلال السنوات العشر الماضية!

اليوم، يغلق الرفيقان جميل وإدمون نذر، مكتبة نوبل بعد خمسين عاماً كانت خلالها منبراً لإيصال الفكر القومي الاجتماعي، حيث لم تكن تتوفر كتب سعاده وبقية المفكرين القوميين إلا في هذه المكتبة، وفي سنوات سابقة، قبل دخول الحزب السوري القومي الاجتماعي إلى الجبهة الوطنية التقدمية، كنا نشعر بالفرح لرؤية كتب المحاضرات العشر والإسلام في رسالتيه ونشوء الأمم تتصدر واجهة المكتبة مع الآثار الكاملة، حيث لم يكن الأمر مألوفاً نظراً لسرية الحزب وعدم ظهوره إلى العلن رغم غضّ السلطات النظر عنه وعدم ملاحقته بشكل فعلي!

بشكل ما، تعبر المكتبات عن حال الأيديولوجيات التي تبنتها في مرحلة ما، فمكتبة ميسلون التي لا يفصلها عن مكتبة نوبل سوى أمتار قليلة، سبق أن أغلقت أبوابها وتحولت إلى مركز صرافة، بعد أن كانت على مدار سنوات طويلة معروفة بتسويق كتب دار التقدم التي يطبعها الاتحاد السوفييتي وكل ما

يتطلب كل ذلك [illegible] 2010 رغم انهيار المعسكر الاشتراكي وتراجع أيديولوجيته، حيث كانت الأوضاع الاقتصادية في ذلك الوقت معقولة وكان سعر الدولار لا يتجاوز الخمسين ليرة! بكل الأحوال، فإن وجود مكتبتي نوبل وميسلون بشكل متجاور وباتجاهين فكريين مختلفين، كان يؤكد حالة صحية في البلد سرعان ما بدأت تتلاشى في السنوات اللاحقة لتغلق عدة مكتبات هامة منصرفة إلى أعمال أخرى مثل مكتبة اليقظة التي أصبحت متجراً للأحذية ومكتبة الزهراء التي أصبحت دكان قرطاسية وصالة انترنت، ومثلها العديد من مكتبات شارع البريد ومنطقة الحلبوني..

مكتبة نوبل، فايز خضور وجدعان الأطرش

في نهاية سنة ١٩٨٢، قمت بزيارة إلى دمشق لمحاولة دعوة الفنان الكبير دريد لحام إلى كندا. غادرت بيروت بالطائرة إذ كانت الطرقات البرية مقطوعة نتيجة الاجتياح الإسرائيلي لأشهر خلت. نزلت في فندق آمية وأخذت موعدا مع الأستاذ دريد لبعد يومين. سألت موظفة الفندق عن مكتبة نوبل. فقد كان رفيقنا في تورنتو جو نزر قد أعلمني انها لأخويه إدمون وجميل ونصحني بزيارتها.
وصلت الى المكتبة بعد الظهر ووقفت أتأمل بواجهتها. كانت مزينة بكتب شوقي خيرالله وأسد الأشقر وفايز خضور وسواهم من الكتاب القوميين.
دخلت المكتبة، وبعد السلام والتعارف سألت عن رفيقنا الحبيب الذي رحل مؤخرا فايز خضور، والذي كنت قد تعرفت عليه في لبنان، فقال لي أحد الأخوين ولعله إدمون، إنه مدعو للاحتياط العسكري وهو على الجبهة! ذهلت. سألته كيف يمكن إرسال كبار الشعراء إلى الجبهة! هز بكتفيه. تابعت جولتي في المكتبة مختارا كتابا من هنا، وكتابا من هناك. فجأة، يدخل عملاق أسمر اللون، أو هكذا بدا لي، كله حيوية وعزم. "يلا خيو، يلا، مستعجل، عشرة كتب تاريخ سورية عشرة كتب الطريق إلى القدس، عشرين لفلان خمسة لعلتان...) وهكذا، إلى ان تجمعت أمام صندوق المكتبة عشرات الكتب القومية والأدبية والفكرية. قام صاحب المكتبة بالحساب فبلغ حوالي الأربعة الآف وستمائة ليرة سورية. نقد العملاق الرفيق إدمون خمسة آلاف ليرة، ولما كان يحتاج إلى فكة، ترك المكتبة وتوجه إلى أحد الجيران طلبا لذلك.
فاتني القول إن العملاق فيما كان يقوم بالطلبية، كان يرمقني بنظرات استفهام. لقد بدوت له غريبا – قريبا. وما إن غادر إدمون حتى بادرني بالسؤال: "حضرتك قريان كتاب أسد الأشقر تاريخ سورية؟" فهمت. أجبته، "أنا أقرأ كل ما له علاقة بتاريخ سورية." ابتسم ابتسامة عريضة وقال، "إيه لكان تحيا سوريا." أنا الرفيق جدعان الأطرش من السويدا." أجبته، "تحيا سوريا، وأنا الرفيق أسامة المهتار من لبنان ومقيم حاليا في كندا." سألني، "الأمين عجاج شو بيكنلك." أجبته، "أبي." هنا غمرني الرفيق جدعان بذراعيه وضمني ضمة كبيرة قائلا "عدا عن كوننا رفقاء في الحزب، فثمة قرابة بيننا"، وقام بشرحها لي.
لم أوفق بقبول الأستاذ دريد الذي اعتذر عن المجيء إلى كندا في تلك السنة. ولكني وفقت بالتعرف إلى ركن ثقافي مهم في دمشق، وإلى رفقاء عاشوا تلك الأيام وما سبقها من أيام صعبة.

في المقابل، لا يجد المتابع عناءً في رؤية ازدهار آخر تعيشه مكتبات شاءت تبني الكتب الدينية وكتب الطبخ والأبراج والفضائح، فهذا التحول حدث بشكل تراكمي وخلال سنوات من الفشل السياسي والقحط الثقافي وانتشار عقلية الاستهلاك في مجتمع يعاني الفقر المدقع ويميل رويداً باتجاه التطرف والانغلاق والكبت! بهذا المعنى يأخذ إغلاق المكتبات في دمشق بالتتابع، معاني عميقةً وهو من دون شك مؤشر لأشياء أخطر حدثت وسوف تحدث في السنوات القادمة!

المثقفون اليوم، ينعون مكتبة نوبل، لكنهم في الحقيقة ينعون أنفسهم بعد الهزائم التي مُنيوا بها فلم يبق أمامهم سوى البكاء على الأطلال، فمن الجانب السياسي، تحول الحزب الشيوعي إلى عدة أحزاب متناحرة وتلاشت شعبيته التي اشتُهر بها في الثمانينيات إلى حد مخيف، كما اضمحلّت أحزاب أخرى مثل حزب العمل الشيوعي، أما الحزب السوري القومي الاجتماعي، فعصفت به آفة الانشقاقات هو الآخر فأصبح عدة أقسام سياسية، رغم انتعاش عقيدته وانتشارها بشكل كبير عند فئات الشعب، لكن ذلك لم يُنجز سياسياً وذلك يرجع إلى المرض العُضال الذي أصاب الأحزاب الأخرى!

الثقافة الاستهلاكية أنتجت خلال السنوات السابقة أحزاباً بلا عقائد، حرص أصحابها على نيل التراخيص بعد صدور قانون الأحزاب في الشام عام 2011، لكنهم ظلوا خارج التأثير والانتشار ليقتصر وجودهم على عدة موظفين وأعمال تطوعية صغيرة كأنهم جمعيات أو نوادي..

الآن، لا يفكر الشباب بالأحزاب أو الثقافة وشراء الكتب، إنهم مشغولون بالهجرة، وتأمين المبالغ الضخمة التي يطلبها المهربون القابعون على الحدود لقاء تأمين "بلم" ربما يغرق بأحلامهم قبل أن يصلوا إلى الضفة الأخرى.. وبعضهم مشغول بالعمل ساعات طويلة من أجل تأمين لقمة العيش.. المشهد يبدو سوداوياً قاتلاً إلى درجة أنك لو أخبرتهم بإغلاق مكتبة نوبل، سيألون من هذه نوبل ومن تكون؟

سنوات طويلة من الحرب والإحباط والفشل، كان يختصرها مشهد إغلاق المكتبات في دمشق، لكنّ المهتمين بالشأن العام والمؤسسات وقادة الأحزاب كبروا وشاخوا ولم ينتبهوا إلى كل ذلك، لقد كانوا يركبون "بلماً" كبيراً ويأخذون أمة كاملة إلى قعر المحيط!

!